الكبسولة

- نحن في النصف الثاني من القرن العشرين. فلماذا تتصرف يا عزيزي على هذه الصورة؟
- أنت حرة. تفعلين ما تشائين.
- تقول ذلك فتؤكد لي حريتي في الوقت الذي تنقبض فيه قسمات وجهك وتتوتر أعصابك. ألست حرة في أن ألبس ما أشاء وأن أرافق من أشاء؟
- قلت لك أكثر من مرة واحدة.. أنت حرة.. تلبسين ما تشائين وترافقين من تجدين متعة في مرافقته..
- ولكنني قضيت الليل معه..
- ما.. ماذا تقولين؟ قضيت الليل معه؟
- نعم يا عزيزي. قضيت الليل معه.

ويتوقف الدكتور الفيلسوف عن الكلام ليغرق في جملة من التأملات. لقد أخذ يبدو على وجهه قناع سميك اختفت من ورائه أفكاره الحقيقية.. ولكن هذه الأفكار لم تمت ولم تضعف بل لعلها وجدت من وراء هذا القناع الظروف الملائمة التي تجعلها تتكاثر وتتزاحم وتتضاغط بشكل لم يسبق لها أن فعلت ذلك من قبل في أعماق نفس الدكتور الفيلسوف.

"هل صحيح أنها حرة في أن تفعل ما تشاء؟ وهل يسيغ لها هذه الحرية أننا نعيش في النصف الثاني من القرن العشرين؟ وهل أنّ شهادة الدكتوراه التي أحملها تفرض عليّ أن أفسح لها الطريق فتمضي فوقها كما تشاء ومتى تشاء؟

ولنفترض أنها صدقت فيما تخبرني به وأنها قد قضت الليلة الماضية مع رفيق طفولتها.. فهل يعني هذا اللقاء أنه قد ملكها؟ وأنها قد أصبحت شريكة روحه؟ نحن الذكور نحاول أن نصل ظاهرة التصاق الجسدين بالحب، ولكن من قال أنّ الحب هو هذا الالتصاق الجسدي؟ إنها هنا أمامي تنظر إليّ بعينيها الجميلتين المعبرتين.. فيهما صفاء وفي ومضاتها ما يؤكد صدق العاطفة التي تعبران عنها.. كلا هذا غير صحيح إنها ملكي أنا.. إنها

تم تحميل هذا الملف من مكتبة الأديب الراحل رمضـان عبدالرحمن لاوند (سـيّد المنابر) www.RamadanLawand.com
مع الاحتفاظ بكامل حقوق الطبع و الملكية الفكرية ،لمزيد من المعلومات يرجى مراسلتنا: info@RamadanLawand.com

زوجتي.. ومهما حالت الأيام بيني وبينها فإنّها لي.. تعيش بروحها في روحي.. هي لا تجد السكينة إلا في منزلي.. أما الآخر الذي لا أكاد أعرفه فهو لا ينال منها غير ما تفرزه الغريزة الحيوانية..

ويطول الانتظار بالزوجة الجالسة.. وتحسّ بنوع من السأم الذي يبلغ حد الغثيان.. إنها تنتظر أن يقول شيئاً.. أن يتغلب فيه الإنسان الحي بكامل غرائزه وانفعالاته على هذه الدمية التي صنعتها أفكار باردة مظلمة والتي تتحرك في الظلام كما يتحرك الإنسان الآلي. ويبدو زوجها الفيلسوف أمامها بقناعه السميك الذي يغشى وجهه ويكاد يمتد إلى كل أطرافه وكأنه يقاوم ضغطاً داخلياً يزداد به توتراً في كل ثانية. وفجأة يسقط القناع، كما تسقط الصخرة الكبيرة تحت ضغط الانفجار الشديد لعشرات من أصابع الديناميت.. ها هو على حقيقته.. الحمرة القاتمة تكسو وجهه.. القشعريرة تسري في كل جسده.. إنه يتحرك من على مقعده فهو لم يعد قادراً على الاحتفاظ بسكونه.. ها هو يقف ولكن دون أن يدري إلى أين يتجه أو أن يعلم ماذا يصنع.

- ماذا بك يا عزيزي؟ هل غيرت رأيك؟ هل تشعر أنك سعيد مرتاح؟ لقد منحتني الحرية التي طالما كافحت من أجل أن تحصل المرأة عليها. وها قد حصلت عليها. والليلة التي قضيتها مع رفيق الطفولة كانت استجابة لشيء لم أكن أطيق التغلب عليه. كنت بين عدد من المحتضرات في المستشفى. أعالجهن وأحاول التخفيف عنهن وأنا أعلم يقيناً أنّ الموت أقوى من كل المراهم والأشربة والحقن التي بين يدي. كانت الواحدة وراء الأخرى تموت. فلا تكاد تلفظ نفسها الأخير حتى يزول انقباض الألم عن وجهها ويعود إليها هدوء غريب.
- ويستمر الدكتور الفيلسوف غارقاً في تأملاته بعيداً عن أفكار زوجته وما تسرده من حكاية المحتضرات اللواتي حملن إلى المستشفى بعد أن التهمت النيران زهرة شبابهن. ويردد بينه وبين نفسه : إنّها ملكي أنا.. فهي تحبني كما لم تحب امرأة زوجها. ولست من السخف والتفاهة بحيث أثور وأهدم كل نظريات الحرية التي وضعت حياتي في خدمتها... وتعود الزوجة إلى الكلام وكأنها تصرّ على أن يستمع زوجها إليها.
- هل تسمعني يا عزيزي؟ نعم كنت أشعر بشيء طاغ قوي خفي يدفعني لإلقاء نفسي بين ذراعي رجل. أحسست فجأة كأنّ الحياة تتسلل من أمامي كما تتسلل قطرات المياه من بين أصابع اليد حين تقبض عليها. كنت أشهد الموت يزحف كما تزحف العاصفة الصامتة.. يغتال الحياة بمنجله. وكنت أحس أنني يجب أن أقاومه. أن أفعل شيئاً للتغلب عليه.. لأن أقدم إلى الدنيا ما يعوض عن الفراغ الذي يحدثه.

وكنت أنت بعيداً عني كما هو شأنك. تستغرقك مشاغلك وتنأى بك عني هموم كنت أظن أنني أفهمها وأقدرها حق قدرها ثم لم تلبث هذه الهموم وتلك الأفكار حتى أخذت تتلفع بالغموض.. لقد أصبحت خرافة تافهة.. لقد بدت لي فجأة وكأنها أكذوبة كبيرة.. أكذوبة بدت لي من ورائها حقيقتي أنا وسعيت عبثاً إليك بل قل سعيت إليك في شخص أول رجل رأيته.

وانفجر الدكتور الفيلسوف قال: كفى.. اسكتي.. وراح يضرب المنضدة أمامه بقبضة يده.. ثم أضاف: هذا الشيء الخفي القوي الطاغي لا أفهمه ولا أريد أن أفهمه. إنّ ما فعلته هو شيء غير معقول غير منطقي إنّه يضغط عليّ.. يخنقني يفتت روحي يسحق كرامتي ألم تفهمني بعد؟!..

قالت الزوجة وقد وقفت أيضاً وتراجعت قليلاً إلى الوراء: غير منطقي؟ غير معقول؟ والحرية التي صنعتها عقلانيتك؟ والحقوق التي منحت لي بفضل هذه الحرية؟ وهل هناك غير المنطق والعقل اللذين عهدتهما عندك؟

واتجه الزوج الدكتور الفيلسوف نحو زوجته. كان يحس بالرغبة في أن يحطم التجربة التي تقف أمامه مكسوة باللحم والعظم، وعلى صورة هذه المرأة التي هي زوجته.. كان يشعر أنها غريبة عنه وأنها وحدها التي تسحق كرامته وتهدم رجولته.. إنها تقف أمامه تماماً كما يقف الضمير أمام صاحبه يدينه ويذكره بما قدمت يداه ويعرض عليه مواطن التشوه والأورام التي أحدثتها قوالبه الفكرية الخانقة. كانت كفاه ترتجفان وتنطويان على نفسيهما كما لو أنهما تستعدان لتسديد ضربة قاضية ولكنه لا يلبث حتى يمتنع عن تسديد الضربة ليتوجه مرة أخرى نحو المنضدة يضربها ويضربها بكلتا قبضتيه على أمل أن يتخفف من الضيق الذي أصابه.

لكن الزوجة لا تخافه أو لعلها كانت تستمتع بهذا النوع الجديد من الإرهاب المخيف.. فهي تريد أن تستثيره، أن تخرجه من التزاماته الفكرية الخاصة أن تحرره من عزلته.. أن تنمّي فيه غيرته حتى ولو كانت الكدمات في وجهها وجسدها هي الثمن الذي ستدفعه مقابل خروجه من عزلته الباردة ونمو الغيرة الساحقة في نفسه.

قال الدكتور الفيلسوف وقد هدأت أطرافه شيئاً ما: ولكن لماذا اخترت هذا الرجل بالذات؟ كان في وسعك أن تتحرري من أزمتك مع مجهول غيره؟ ألا تعلمين أنك قد جرحت كبريائي حين اخترت إنساناً أعرفه؟

- وما يهمك أنت من ذلك؟ وهل يسعني أن ألتقط أي رجل في الطريق مع الحفاظ على بقية كرامة لي؟ هل أكون لو فعلت ما تقترحه أكثر من إنسانة ساقطة؟ كنت أسعى إلى تحقيق شخصيتي.. إلى مواجهة

الموت بالحياة التي أستطيع أن أقدمها، ولا يسعني أن أفعل ذلك مع مجهول، فالحياة الخصبة تحتاج إلى الحب الشريف النظيف.. هذه الحياة ليست إفرازاً للغريزة، ولكنها معنى كريم يتجسد في لحم وعظم وحين لا يتوفر للحياة التي أريد صنعها هذا المعنى الكريم مع مثل الزوج الذي أحب فلا أقلّ من أن أبحث عنه عند من تشدني اليه ذكريات طفولة حميمة..

وتابعت الزوجة تقول وقد بدا زوجها أمامها مجمد الأطراف ثابت النظرات: أنا أعلم أنك لم تفهم بعد ولكن ما حيلتي أمامك؟ لقد فقدت كل ما من شأنه أن يهب الحياة سرها الخفي العظيم.. لقد وهبتني الحرية بعد أن أفرغتها من المسؤولية، وأعطيتني الشرعية بعد أن نزعت عنها الحب، وزعمت أنك أعطيتني الكرامة وكل الذي فعلت أنك وضعتني في الوحدة والضياع والعزلة.

واندفعت الزوجة كما تندفع العاصفة قالت: أتعرف ما هي أفكارك؟ أفكار النصف الثاني من القرن العشرين؟ إنها جملة من الأسقاط.. جثث من لحم وعظم ولكنها عظم ولحم ميتان خاليان من الجمال والقوة والحب.

أفكارك هذه سأتركك لها.. سأدعها لك.. سأذهب بعيداً عنك بحيث لا أعود أحس ببرد الموت كلما وجدتك أمامي.. لقد أصبحت ميتاً أيها الزوج العزيز.. ذلك أني لم أعد أعاني ضغط العنفوان عندك ولم أعد أجد متعة الرجولة التي تملكني مع كل ما أحمل من غريزة الأنوثة.

وهنا أحس الدكتور الفيلسوف أنّ كل هذا البناء الضخم من الأفكار الذي صنع به حياته قد أخذ يهتز. وأخذت الأرض تنسحب من تحته.. إنّها تبتعد، وهي كلما زادت ابتعاداً ضاقت أمامه أطرافها ثم لم تترك له وراءها غير الفراغ.. وراح البناء يتزلزل ويتأرجح ثم لم تلبث الهوة التي بدت من تحته بعد انسحاب الأرض أن ابتلعته مرة واحدة.. وفي فترة قصيرة جداً كأنها اللمح الخاطف شعر بالوحدة، ولكنها وحدة مريحة عجيبة غريبة.. لقد أحس أن نفسه تعود إليه.. أنّ الثقل الشديد الذي كان يرزح تحته قد ذهب عنه فهو لم يعد في حاجة إلى الهرب من المأساة التي كان يعانيها مع حمله القديم الذي زايله.

وارتفعت من أعماقه معان لم يكتشفها من قبل أبداً ولكنه لم يكد يعيها حتى أدرك أنها قطعة من روحه.. وفكر فيما يصنع! هل يعتذر؟ هل يضرب؟ هل يحطم كل شيء حوله؟ كان راغباً في شيء واحد.. في أن يخرج من عالمه القديم.. من أفكاره كلها ومن الدنيا والأشياء التي رافقت هذه الأفكار.. حتى البيت الذي يسكنه والغرفة التي يقف فيها الآن والمقاعد التي تبدو أمامه وضروب التحف والزينة التي تنتشر حوله.. هذه كلها تذكره بعالمه القديم وبأفكاره التي ذهبت في الهاوية.

كل هذا والزوجة تقف أمامه وكأنها تنتظر مفاجأة عنيفة قاسية ولكنها تستعد لاستقبالها بمتعة غريبة خفية. يرافقها قلق عميق كهذا القلق الذي يجتاحها حين تجد نفسها أمام المرأة التي تمزقها الآم المخاض.. إنّها وحدها

كطبيبة وكأنثى قبل ذلك تدرك العلاقة الصميمية بين الألم والحياة.. إنها تنتظر الوليد الجديد عند الزوج الفيلسوف الذي يعاني مخاضاً رهيباً قاسياً في أعماق ذاته، وهي لا تبالي كيف ينتهي هذا المخاض حتى ولو كان الموت هو النهاية المكتوبة له، فهي على الأقل تشعر أمام هذا الموت بأنها قد تحررت من الزيف الذي كانت تعيش في صميمه..

وكم كانت المفاجأة المنتظرة عنيفة قاسية حين انقض عليها زوجها يضربها بكلتا يديه فلم تقاوم ولم تقل شيئاً بل راحت تبكي بكاء لا يدرك متعته المؤلمة غيرها هي.. حتى إذا هدأ الغضب عن زوجها وبدا لها أنه يحاول أن يلملم أفكاره ويقرر رأيه في الموقف الجديد قالت له وهي تشرق بالدمع: الآن أدركت أنك تحبني.. لقد نجحت التجربة يا عزيزي.. إنّ ما زعمته من قضاء الليل مع رفيق الطفولة لم يكن غير الكبسولة التي أوقظ بها حبنا الذي برد حتى كاد يلفظ أنفاسه.. لقد كنت جديرة بالانتحار لو أنك لم تفعل ما فعلت، وكنت حرية بقتلك قبل أن أواجه الموت.

وساد صمت ثقيل لم يخرجهما منه غير رنين الهاتف.. ورفع الدكتور الفيلسوف السماعة فوضعها جانباً ثم جلس إلى جانب زوجته ليكتبا معاً قصة حب تصنعه فلسفة الأحياء من الرجال والنساء..